# ٥

# اقتراب الحرب العالمية

## ١٩١٢ ــ ١٩١٤

obeikandl.com

لقد كانت عاقبة المسلك الذي سلكته فرنسا في مراكش من أوخم العواقب فانه لما ظهر ان الجمهورية تسعى الى الوصول الى الغرض الذى ظلت ترمي اليه فى البحر الابيض المتوسط حقبة من الزمان ، استقر رأى دول أخرى ممن زعمت لنفسها فى مراكش مطالب بعينها على المضى في تحقيق رغباتها هي أيضاً ، فايطاليا التى كانت تستند الى اتفاقاتها المعقودة مع فرنسا فى سنتى ١٩٠٠ و١٩٠٢ والى معاهدة راكونيجي المعقودة فى سنة ١٩٠٩ تقدمت تعرض أنها تنوى امتلاك طرابلس وبرقة وفى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩١١ بعثت الى تركيا انذاراً نهائياً طلبت فيه اجراء اصلاحات واسعة النطاق فى المنطقتين الآنفتى الذكر وهددت باحتلالهما وكان ذلك العمل فاتحة الحرب المنعوتة بالطرابلسية والتى كانت فى الواقع غزواً صريحاً من جانب حكومة روما .

وقبل هذا الحادث ببضعة أشهر كانت الرسيا قد خطت خطوة فى سبيل الاقتراب من حل مشكلة المضايق بعد الذي كان من فرنسا من التقدم في شمال افريقيا . فانه في ٥ مايو سنة ١٩١١ طلب نيراتوف مساعد وزير الخارجية سازونوف من سفير الرسيا فى باريس أن يستوثق من موافقة الحليفة الفرنسية على هذه المسألة حتى لا تنهض لمعارضة وجهة النظر الروسية والاجراءات التى قد تتخذها الروسيا فى اللحظة التى ترى فيها من الضروى الانتقال الى محادثات بل الى مفاوضات بعينها . وقد ترددت الحكومة الفرنسية طويلا قبل أن تجيب لانها كانت تشعر تماماً ان عليها أن تحاذر فيما يتعلق بالاستانة من أجل الموقف الذى تقفه انجلترا حيالها ، ولذا لم تجب الا فى ٤ يناير سنة ١٩١٢ حيث أعلنت استعدادها فى رسالة كتابية لتبادل الآراء فى القرضية التى ترى الحكومة الروسية نفسها مضطرة لطلبها فى شأن مسألة البوسفور والدردنيل

على أن يكون هذا التبادل حينما تقضى حالات جديدة بفحص مسألة المضايق . وهذه موافقة مرنة لم تستطع معها بطرسبرج شيئا كثيراً .

على أن الروسيا كانت فى خلال ذلك قد شقت لنفسها طرقاً أخرى لتتقدم الى غرضها فى حيثما كان السعي ممكنا ، فانه بينا الباب العالى مشتبك مع ايطاليا فى حرب عرض السفير الروسى فى الاستانة فون تشاريكوف فجأة على الحكومة العثمانية فى أول ديسمبر سنة ١٩١١ أن تفتح المضايق فى المستقبل لسفن الروسيا الحربية . فساد الهرج والمرج فى القرن الذهبى وأكد أصحاب الشأن أن إجابة الروسيا الى مطلبها هى بداية انتهاء تركيا ذلك أنها لابد أن تفضى حتما الى سيادة الروسيا للعاصمة . لكن هؤلاء كانوا يخشون فى الوقت نفسه نشوب الحرب . وفى تلك الاثناء كان معتمد المانيا فى الاستانة المرشال فون برشتين واقما مع برلين فى خلاف شديد لان هذه كانت تميل الى التساهل مع بطرسبرج فى رغباتها . ولم تقض المسألة الا عند ماتدخل سازونوف الذى كان فى ذلك الوقت فى باريس فقد علم وزير الخارجية الروسية من سفيره فى لندن الذى قابله على ضفاف السين ان انجلترا لاتوافق على مطلب الروسيا ، ولما كان الخلاف على فارس قد بلغ من ذلك الحين أشده بين بريطانيا العظمى وبلاد القيصر ، كان يخشى أن تزيد الخطوة العنيفة التى خطاها تشاريكوف فى استياء لندن فتراجعت بطرسبرج على عجل .

ومع ذلك لم يقطع سازونوف أملا بل رجا أن يكسب دوره بعمل سياسى أريب . فلما رجع إلى بلاده ظهر يطلب التوسط بين تركيا وايطاليا للصلح ويدعو الدول فى ١٩ ديسمبر الى أن تنصح لروما والاستانة معاً بعقد هدنة يسحب بموجبها الاتراك جنودهم ويتركون للمعتدين الجهة التى يطلبونها . وهذا فى الوقت الذي كانت فيه الجنود الايطالية تعاني فى طرابلس مركزا على جانب من السوء . أما ممثلو الدول الاجنبية فى القرن الذهبى وكانوا اكثر إلماما بالحالة فقد رأوا بالاجماع ان هذا الطلب لايمكن الباب العالي قبوله فى حين كانت المانيا تقف حيال هذا المطلب موقفاً وديا . وقد اشترك العرب أيضاً فى

مقاومة الايطاليين ، والعرب ومعهم العالم الاسلامى أجمع كانوا خليقين أن يروا في أي تساهل من الحكومة التركية خيانة للاسلام ولو تم ذلك لكان السخط الذي يوجه الي الاستانة قمينا بأن يفضى الى انحلال تركيا في الداخل . ولقد أعقب ذلك ان استدعى تشاريكوف السفير الروسى من منصبه وهو الذى كان يناهض وزير خارجيته بهذه الافكار وامثالها واخيراً قدمت ايطاليا شروطا سهل مداها على الباب العالي رفضها وحلت الهزيمة بسازونوف

في غضون ذلك كان تطور على أعظم جانب من الاهمية يقع فى الشرق الادني ويبشر دولة القيصر بنجاح عظيم فان البلقان أخذ يتحرك فى الوقت الذى قدمت فيه ايطاليا بلاغها النهائي إلى الباب العالى حتى ان وزير الروسيا المفوض في صوفيا بعث يقول فى ٢٩ سبتمبر «انه لن يكون فى الامكان وقف البلغاريين اذا شاع الاضطراب في داخل تركيا » وبعد ذلك بيومين اثنين بعث هارتفيج من بلغراد يقول انه « مامن حكومة صربية تستطيع أن تكبح جماح شعبها اذا احتلت بلغاريا مقدونيا أو نشبت ثورة فى الامبراطورية العثمانية أو زحفت النمسا والمجر على السنجق » . فاستغلت الروسيا هذه الفرصة الصالحة لحمل كلتا الدولتين على التعاون المشترك

وكان هارتفيج خاصة لايستقر له قرار ولا ينى يعمل فى هذه السبيل وقد جرت مفاوضات فى هذا الشأن استغرقت عدة أشهر وكان أهم اغراضها العمل على التوفيق بين مطالب الامتين وادماج نيات بلغاريا التى كانت موجهة قبل كل شيء الى تركيا ورغبات صربيا التى كانت موجهة ضد النمسا والمجر بعضها و بعض . وأخيرا وقع الفريقان معاهدة فى ٢٩ فبراير ١٩١٢ وعدت فيها كل من بلغاريا وصربيا الاخرى بمساعدتها عسكريا « اذا حاولت إحدى الدول العظمى ( يعنى النمسا والمجر ) أن تنتزع أو تحتل ولو بصفة مؤقتة جهة من الجهات الواقعة فى البلقان والموجودة في الوقت الحاضر تحت السيادة التركية ( يعنى السنجق ) » وضم الى المعاهدة ملحق سري نص فيه على ان

تتفاهم الدولتان على ما يجب اتخاذه للتدخل فيما اذا نشبت قلاقل في تركيا أو تعرضت الحالة الراهنة في بحيث جزيرة البلقان للخطر ثم ان تبلغا ما يتفق عليه الى الروسيا ليكون لها الفصل الاخير فيما يتخذ . هذا الى ما كان لدولة القيصر من الحق فوق ذلك في أن تسوي ماقد ينشأ بين الدولتين المتعاقدتين من خلاف .

وهكذا ضمنت الدولة السلافية العظمى لنفسها السهر على هذا المشروع السرى وتوصلت الى أن يصبح في امكانها الظهور بمظهر الزعيم لهاتين الدولتين وسرعان ما انضمت اليونان والجبل الاسود الى ذلك الحلف وظاهرتاه في اتفاقاته . وهي اتفاقات يعد من أول الموجدين لها هارتفيج ذلك الرجل الذى كان يعلم بالضبط ما يريد . وقد بين فى ٥ نوفمبر سياسة الروسيا في الشرق الادني في قوله ازهذه السياسة « تسعى فى رأيي الى غايتين نهائيتين لايعتورهما إبهام : الاولى تحقيق المثل العليا لتلك الشعوب السلافية التى أيقظت فيها الحياة المستقلة تحقيقاً يتطلب توزيع الاملاك التركية الكائنة و بحيث جزيرة البلقان على تلك الشعوب ، وثانياً تأدية المهمة التاريخية القديمة التى ظلت الروسيا تضطلع بها قروناً عدة وهي تثبيت اقدامها على شواطىء البسفور مدخل « البحرية الروسية » . وليس أجلى من هذا في بيان ما كانت بطرسبورج ترجوه من تعاون دول البلقان . ففي سبيل هذا التعاون كان يراد أن تتحطم تركية أوروبا وأن يشق الطريق للروسيا الى الاستانة . فما لم يكن يحقق بالطرق الديبلوماسية كانت العدة تتخذ لتحقيقه بالقوة وهذا لم يكن معناه تهديد تركيا تهديداً مباشراً فحسب بل كان معناه ايضاً تهديد النمسا والمجر تهديداً غير مباشر . لانه بغض النظر عن انه كان يراد منهم هدم الامبراطورية من أى عمل مستقل ، فقد كان كل نمو لبلاد البلقان تحت ارشاد الروسيا خطراً عائلا طبيعة الحال للمملكة المزدوجة التى كانت لابد أن تصبح في القريب العاجل أول هدف توجه اليه هذه البلاد

الطموحة اعتداءاتها ، واذن فقد كان هنا في طي الخفاء مايهدد دول الوسط بهديداً كان خليقاً أن تكون له أسوأ العواقب .

وبينما كان العمل متواصلا لوضع لغم الحلف البلقاني كان الروسيون مثابرين على خدمة مصالحهم الخاصة إذ أنه قبل عقد المعاهدة البلغارية الصربية بزمن وجيز عرض سازونوف في ١٤ فبراير سنة ١٩١٢ على الفرنسيين أن يتفق الفريقان على مسلك مشترك تتخذه الجمهورية ودولة القيصر في حالة ما إذا حدثت أزمة داخلية في تركيا أو أخذت النمسا في مشروع فعال أو نشبت الحرب بين الباب العالي واحدى دول البلقان فكان سازونوف يترسم الخطة التي وضع أساسها الاتفاق المدرفي صوفيا وبلغراد . وإذن فقد كان وزير الخارجية الروسية يريد أن يعرف موقف فرنسا في تلك الحالات التي أريد بها أن تكون ذريعة للاعتداء وأن يضمن اذا أمكن مساعدة تلك الحليفة الغربية ، لكن باريس على قدر مايسعنا أن نقرر ، راوغت في الجواب إذ كانت تنظر في ذلك الى لندن وتعلم أن الواجب أن يكون المرء على حذر

هذا إلى انهم في باريس لم يكونوا ينظرون بعين الرضى الى مضي صديقتهم الشرقية في تحقيق رغباتها القومية على مسئوليتها فمن كان يدريهم أن هذه الصديقة إذا بلغت يوما أغراضها تعود تأبه بآمال الفرنسيين الخاصة ؟ أليست الازمة المراكشية الاخيرة قد علمتهم ذلك إذ وقفت روسيا حيال المسألة كلها موقف تحفظ ينم عن عدم الاهتمام ولو أن مسلكهم حيال فرنسا كان من الوجهة الدبلوماسية مسلك ود ، ذلك انهم لم يكن يعنيهم ماتسعى اليه فرنسا في شمال أفريقيا .

وهذه اعتبارات كانت تظهر في فرنسا قوية كلما حمي الامل في استرداد الالزاس واللورين وحداها الرجاء في تحضيد شوكة المانيا فانه في تلك الايام العصيبة من صيف سنة ١٩١١ لما ارسلت المانيا طرادتها إلى اغادير ورفعت

انكلترا يدها على أثر ذلك تحذر المانيا من نتيجة عملها وتحمي بهذا الجمهورية كانت النعرة الغالية القومية على أشدها فقد كانوا يشعرون من ناحية بقوتهم لما أظهرته الجزر البريطانية على غير انتظار من الاستعداد الكبير للدفاع عن المطالب الفرنسية ولم يشعروا من جراء ذلك بأن في مسلك برلين اذلالا لهم وهكذا كان لابد من استقالة وزارة مونيس بعد اتفاق الكنغو مع الامبراطورية الالمانية لتخلي مكانها لحكومة وطنية جديدة على رأسها ذلك اللورين الموهوب الطموح القوي العزيمة ريمون بوانكاريه . ومن ذلك الحين أمكن ايزفلسكي السفير الروسي في باريس أن يقرر في ارتياح كيف تحولت الامور تحولا سريعاً بعد ان كان في سنة ١٩١١ غير راض عن الحالة النفسية في الجمهورية . فلقد كتب ايزفلسكي يقول ان الفرنسيين لم يعودوا ينظرون الى مسألة الالزاس واللورين كأنها محلولة . ووصف المجهودات التي يبذلها ميلر ان وزير الحربية لاثارة الحماسة الوطنية بين الاهالي والجيش وهكذا جرى التطور في بلاد حليفة الروسيا الغربية المجرى الذي أرادته هذه الحليفة من زمان طويل.

وكانت مساعي بوانكاريه موجهة في الروسيا الى أن يؤكدها بكل قواه مصلحة فرنسا في التعاون مع الدولة السلافية العظمى . على ان هذه المصلحة لم تكن في الشرق الادنى أو في الاستانة بل كانت في وقوع الاصطدام مع المانيا ذلك الاصطدام الذي يجب أن تشترك فيه الروسيا بما يسمها من قوة . بهذه الروح كان رئيس الوزارة الفرنسية الجديد يضع سياسته وقد وسعه ذلك لان انكلترا قبل كل شيء كانت الى جانبه .

وفي فبراير سنة ١٩١٢ ابتدأت في باريس المفاوضات لعقد اتفاق بحري بين فرنسا والروسيا . وقد وقع هذا الاتفاق في ١٦ يوليه وقررت فيه الخطة التي يتبعها كلا الاسطولين في حالة الحرب . أما في حالة السلم فقد نص على أن تتبادل هيئتا الاميرالية في الدولتين الاخبار وأن تضعا الخطط معاً . وقد

كان من جراء هذه الاتفاقية أن اتخذت قوى فرنسا البحرية البحر الابيض المتوسط قاعدة لها فاكتسبت فرنسا بذلك مزية حماية مراكش . على انه كما كانت شواطىء فرنسا فى الشمال والغرب معرضة بهذه الكيفية فقد سدت الاميرالية البريطانية هذا الفراغ وتولت حماية هذه الشواطىء بعد محادثات مع السلطات البحرية الفرنسية في اغسطس سنه ١٩١٢

وقد توجه بوانكاريه الى بطرسبرج حوالى ذلك ليقوم هناك بمحادثات سياسية تفصيلية مع مسيو فى أمورها ونياتها . التى أسندها الى وزير الخارجية الروسية تدل على الاتجاه الذى أسلفنا بيانه فقد نوه قبل كل شيء بأهمية بدء الروسيا بمد فرع ثان للسكك الحديدية التى تؤدى الى الحدود الالمانية لتتمكن بذلك جنودها من الزحف السريع كما تريد هيئة أركان الحرب الفرنسية ، ثم نصح فوق ذلك بالسعي لعقد اتفاق انجليزي روسى على بحر الشمال يعقد فى حالة نشوب حرب مع المانيا ويكون تكملة للاتفاق البحري الفرنسى الروسى الخاص بالبحر الابيض المتوسط . فنم بذلك على ان بريطانيا العظمى قد وعدت بمساعدة فرنسا اذا ماهاجمتها المانيا بجيش مؤلف من مائة الف رجل يرسل الى الحدود البلجيكية . وقد اتخذ الحديث اتجاها ذا دلالة كبرى لما أن أظهر سازونوف رئيس الوزارة الفرنسية على المعاهدة السرية المعقودة بين صربيا وبلغاريا فقد أعلن بونكاريه بحق ان هذه المعاهدة معاهدة حرب «وان من واجبه أن يؤكد ان الرأى العام فى فرنسا لن يسمح للحكومه الفرنسية بالاشتغال بشؤون البلقان الصرفة من أجل عمل عسكري لاتكون المانيا مشتركة فيه ولا يكون عملها هو المسبب له » . وهذا صحيح لان المانيا لا البلقان ، هي الهدف الذي ترمى اليه الجمهورية . وقد فهم ذلك سازونوف في الحال لانه مضى فى مذكرته يقول : « وقد اعلنت من جانبى للوزير اننا نحن الروسيين مستعدون للوقوف الى جانب فرنسا في الظروف التى نصت عليها محالفتنا ، لكننا لن نستطيع أن نبرر للرأى العام الروسى وجوب اشتراكنا

فى عمليات حربية يمكن أن تقتضيها شؤون استعمارية خارج أوروبا وفي هذه الحالة تتأثر مصالح فرنسا الحيوية فى نفس القارة » ولا يمكن أن يكون أجلى من هذا فى التلميح الى مراكش .

وقد خاض بوانكاريه مذ دار هذا الحديث الخوف من نشوب حرب البلقان التى كانت تعد معداتها فى سكون ولم يحجم بعد ذلك باشهر وبعبارة أخرى في ١٥ اكتوبر سنة ١٩١٢ عن ان يمد المعاهدة الصربية البلغارية وسيلة تضمن بها الروسيا سيادتها على البلقان . على أن خوفه لم يكن لتعرض السلام على العموم للخطر بل كان خوفه في الغالب لتعرض السلام لهذا الخطر بصورة تمكن الحليفة الشرقية من السعى الى انتصارات حاسمة فيما يلى المانيا . وقد كان الرأي المتسلط على بوانكاريه هو الذى أعرب عنه جورج لويس السفير الفرنسى في بطرسبرج فى سنة ١٩١٠ وكان كايلى : « ان الاستانة والمضايق يقابلان في المحالفة الالزاس واللورين وهذا لم تنص عليه معاهدة ما كتابة لكنه اسمى غرض يفكر فيه دون أن تجري به الالسنة فاذا سألنا الروسيون في محادثاتنا معهم رأينا فى هذا وجب أن نجيبهم أجل ، عند ماتصبحون قادرين على أن تمدوا الينا يد المساعدة فى استرداد الالزاس واللورين » من ذلك الحين كان بوانكاريه يلح فى أن يبلغ بالضبط كل ماتنويه بطرسبرج من اجراءات

***

قبل ذلك الحريق الذى اشتعلت ناره فى الشرق الادني بزمن يسير قام سازونوف في سبتمبر سنة ١٩١٢ الى انجلترا ليزيل في بلمورال بالتحدث الى كبار الساسة الانجليز أسباب الخلاف على أشياء كانت لاتزال قائمة بين الجزر البريطانية والروسيا . وقد انتهز هذه الفرصة ليسأل غراي عما اذا كان مستطاعا ان يتعاون الاسطولان البريطاني والروسى في المياه الشمالية . فكان جواب وزير الخارجية البريطانية بالسلب لان بحر الشرق على الخصوص يمكن

ان يصبح فخا لاصطياد السفن التى تجرى اليه مادام انه قد يسم المانيا ايصاده على من فيه . على انه ابدي تبعا لذلك « ان اسطولنا سيحاصر الشواطىء الالمانية في بحر الشمال اذا لم ينجح - وهذا خيرلنا - في حمل الاسطول الالماني على القتال وسيقوم اسطولنا اذا اشتركنا فى الحرب بكل ماهو في الامكان لمحاربة المانيا ومساعدة كل مشترك فى الحرب ضدها » وقد ارتأى أن أهم شرط لاشتراك بلاده في الحرب هوأن تكون المانيا هى المعتدية لانه يجب أن يحسب حساب الرأي العام . ولقد تفوه ملك الانجليز بعبارة دلت على مبلغ السخط على تسليحات المانيا البحرية اذ صاح « في لهجة بادية التهيج ان حربا تقع لن تكون وخيمة العاقبة بالنسبة للاسطول الالمانى فحسب بل تكون كذلك أيضا بالنسبة لتجارتها فيما وراء البحار ذلك أن الانجليز سيغرقون كل سفينة تجارية المانية تقع فى أيديهم » . وعلى كل فان سازانوف لابد أن يكون قد اقتنع من هذه التصريحات بان فى الامكان دخول بريطانيا العظمى الحرب ، وأن عداوتها كعداوة فرنسا تناهى لالمانيا قبل كل شيء وانه يجب على الروسيا أن تتجنب كل موقف يكون ظاهره التحرش .

والنقطة الاخيرة على الخصوص كانت تستحق أن تراعي في تلك اللحظة لأن الانباء كانت قد وردت من صوفيا و بلغراد كما جاءت من سيتنجة وأثينا بأن شعوب البلقان تستعد للهجوم على تركيا . وكان سازونوف لم يفش في بلجوراك من مقدمات مشروع البلقان شيئاً حتى لايكشف الدور الذى تلعبه الروسيا . بل لقدذهب في الحذر الى أبعد من ذلك : لقداشترك في الاجراءات الديبلوماسية التى كانت باريس مصدرها قبل غيرها لتحول دون وقوع الحرب . وكان اشتراكه في صورة بينة في هذه الاجراءات التى كانت باريس تعنى بها عناية زائدة . وفي الحقيقة أن الروسيا كانت تحتفظ لنفسها بالكلمة الفاصلة في انطلاق شعوب البلقان على تركيا وكثيراً مانوه وزير الخارجية الروسية نفسه بأنه بهذا الاحتفاظ تنتزع من الحلف حجته الخطرة إذيسم بطرسبورج في اللحظة

العصبية أن تتدخل وتقف كلا عند حده . على ان هذا كان على الأقل خديعة للنفس لان التحالف الذى كانت الروسيا تتوق اليه والذى شجعته وهي تدري غايته بين بلدان شرق أوروبا الجنوبى ، كان العامل الاكبر في تحقيق كما مر بنا هو أمل تلك الشعوب في الفتوحات . فاذا كانت الدولة السلافية العظمى ستبدد هذا الامل بالوقوف في وجهه والحيلولة دون تحقيقه ، فقد فقدت الروسيا زعامتها في شعوب البلقان وهي الزعامة التى عدتها الروسيا أكبر ربح لها . وما كان باستطاعة دولة القيصر أن تقول لبلغاريا وصربيا واليونان والجبل الاسود قفن فيقفن . بل كان لابد لها من أن تستتر وراء المساعى المشتركة التى قامت بها الدول لتخفى عدم ميلها الى اشعال النار التى اعتبر الروسيون اشعالها — كما تدل كل الظواهر — سابقاً لاوانه . أما ان بطرسبورج لم تكن تؤمن بنجاح هذه المساعى كما تدل عليه الاجراءات السرية التى اتخذها الروسيون فى بلادهم أنفسهم فلم يكن فيه شك فقد جرت تعبئة واسعة النطاق في منطقة الحدود الغربية على سبيل التجربة ، وفى ٣٠ سبتمبر لما عبأت شعوب البلقان جيوشها تلقى الفيلق الروسى السادس فى فرصوفيا خبراً مؤداه أنه اذا أبرق اليه بالتعبئة في المراكز العسكرية الاوروبية من جراء تعقد الحالة السياسية على الحدود الغربية وجب أن يعتبر هذا الامر أمراً في الوقت عينه بالبدء بقتال النمسا والمانيا . هذا عن باطن الامور ، أما ظاهرها فقد كان اشتراك الروسيا في مسعى الدول الاخرى الى السلام . وقد كان الروسيون يعلمون أنه مامن سبيل الى نجاح هذا المسعى فكانوا يستعدون لكل احتمال .

ولقد اتخذت الحوادث المجرى المقدر لها فطلبت شعوب البلقان اجراء اصلاحات تتعلق بالاهالى المسيحيين لتتخذ هذا الطلب ذريعة للتدخل ثم انتقلت الى الهجوم غير عابئة باعتراض الدول . فاعلن الجبل الاسود الحرب فى ٨ اكتوبر وتبعته في ١٧ و ١٨ منه بلغاريا وصربيا واليونان وبذا نفخ في تلك النار فشب حريقها المشؤوم . وقد رأت تركيا نفسها مضطرة قبل كل شىء

الى تسوية نزاعها مع ايطاليا فوقعت الصلح فى لوزان في ١٦ اكتوبر بعدأن ظلت برلين تسعى لدى رومه والاستانة عدة أسابيع الى تحقيقه مذللة في هذه السبيل مصاعب على أعظم جانب من الخطورة . وقد بغت ايطاليا بهذا الصلح ماسعت اليه وباتت تمتلك المناطق التى كانت تطالب بها . ثم كان من جراء احتلالها بعض الجزر التركية في البحر الابيض المتوسط أن وقعت فى خلاف مع فرنسا فكان هذا سبباً في اقترابها اذ ذاك بعض الشيء الى المانيا . وهكذا أمكن تجديد المحالفة الثلاثية في ٥ ديسمبر سنة ١٩١٢ بناء على طلب رومه مع أن مدتها كانت تنتهى في سنة ١٩١٤ . وتجديد هذه المحالفة مع ايطاليا قد لقى فى النمسا والمجر بادىء الامر معارضة قوية لكنه قضى عليها باقالة رئيس أركان الحرب كونراد فون هوتزندورف زعيم الناحية المناهضة لايطاليا . ذلك أن وزير الخارجية الكونت ايرنتال كان كالامبراطور فرنسوا جوزيف مستمسكا بالمحالفة الثلاثية بصيغتها القديمة . على أن ارتباط ايطاليا كان دائما مفككا والسبب الاكبر في ذلك هو أن انجلترا كانت في الفريق المعادي .

لقد كانت دول البلقان فى حربها الفتحية مع الدولة العثمانية تحرز النصر تلو النصر فكان ما لم يكن في الحسبان يتحقق بسرعة مدهشة . وقد ظل الاتراك يتراجعون عن مواقفهم الدفاعية واحدا بعد آخر حتى اذا أوشك نوفمبر أن ينتهى وقف زحف المنتصرين عند شطلجة الموقف الاخير غير بعيد من الاستانة . وقد كانت نتائج هذه الحوادث على أعظم جانب من الخطورة لاوروبا بأسرها . واذا كانت الدول قد صحت بأنها لا تسمح بحال من الاحوال بأن تتغير الحالة في البلقان فقد باتت فكرة كهذه غير ممكن تنفيذها بعد الذى كان . وقد كانت بلاد الوفاق الثلاثى متحمسة للمعتدين بقدر ما يصيب هؤلاء من ظفر كما كانت انجلترة تعطف عليهم «عطفاً قويا» . وقد أرسل ايزفولسكي من باريس يقول ان هنالك تحولا جديا في الحالة النفسية لمصلحة دول البلقان . وفى الروسيا حيث كان الاهتمام بهذه الحوادث أشد

بطبيعة الحال قر الرأى على مناصرة الدول البلقانية جهاراً . فدعا القيصر فى أواخر اكتوبر سازونوف اليه بتأثير الغراندوق نيقولاى نيقولايفتش وغيره من القواد ليقول له انه يرغب فى أن تقدم الى دول البلقان كل مساعدة ممكنة.

وفي الواقع ان انتصارات الدول المتحالفة كانت بطبيعة الامور انتصارات لروسيا على تركيا والنمسا والمجر معاً . فقد أصيبت الدولة العثمانية بهذا التزعزع الهائل الذى لم تستطع المساعى الديبلوماسية المخفقة أن تحدثه ، واضطرت النمسا والمجر وهي ترى نفسها محوطة بدويلات قوية ناهضة أن تعدل عن كل نفوذ فى الشرق الادنى ، وأن تصبر في هذه الاسابيع صبراً لم يخطر ببال اذ تجنبت أى عمل ينطوي على التسرع مع أنها كانت بازاء تطور يقع حول حدودها ويناهض مصلحتها أعظم مناهضة . وقد كانت برلين لاتنى لحظة عن حض فينا على التزام هذا الموقف وبذلك أمكن التفادى من الاصطدام العام . والافلو أن النمسا والمجر استجمعت نفسها للعمل لما كان شك فى وقوع الحرب العالمية اذ ذاك .

ولقد أفضت الانتصارات السياسية الهائلة التى لقيتها الروسيا الى أنهم في فرنسا على الأخص باتوا يرون العدول عن موقف التحفظ الذي كانوا يقفونه الى ذلك الحين حيال سياسة الروسيا البلقانية . وهذا التفكير كانت تمليه الحقائق الواقعة ويقتضيه حكمها المنطقى القاسى . أو لم يكن الفرنسيون يخشون أن تحقق حليفتهم الشرقية بالفعل أغراضها القومية ؟ فان جانبا من رغبات تلك الدولة السلافية العظمى وهو بسط سلطانها على الدول البلقانية الناهضة كان يلوح في آخر خريف ١٩١٢ وكأنما قد تحقق. والجانب الآخر وهو الاستانة كان وشيك التحقيق . فهل كان ينبغي أن تفقد باريس بالمعارضة والرفض الفاتر الصلة والأمل في جر المنافع لنفسها هى ؟ لقد حاول بوانكاريه أول ماحاول أن يعمل لحسابه بلعبة ماهرة . فانه لما ظهر على فينا أنها تريد أن تحظر على صربيا التقدم الى أوربا أو بعبارة أخرى الى البحر الابيض المتوسط

حتى لا تترك تلك الجارة تتقوى ، طالب الروسيا في ٤ نوفمبر ١٩١٢ أن تقرر مع فرنسا وانجلترة أن هذه الدول « ستقاوم كل دولة عظمى تضم الى أملاكها شيئا من أملاك تركيا » فارضا خطأ أن النمسا والمجر تدبر خطة للتوسع . وهذا الاقتراح كان يعد بمثابة تساهل كبير نحو الروسيا مادام انه موجه ضد مملكة الطونة . ذلك أنه دل — على نقيض تصريحات بوانكاريه التي فاه بها في أغسطس في بطرسبورغ — على أن الجمهورية الفرنسية تريد أن تكون منازعات البلقان من الآن فصاعداً سبباً يحمل فرنسا على الحرب اذا ما حدثت النمسا والمجر نفسها بالاقدام على عمل ما . بيد أن بوانكاريه كان في الوقت نفسه ينوي الحيلولة بين الروسيا وبين التقدم لأن هذه الدولة هي في جملة الدول التي تفكر في الحصول على جانب من أملاك تركيا ماتعلق الامر بالمضايق . على أن سازونوف تبين هذه الأحبولة في الحال ، فأعلن أنه لايحب « اللف في الكلام » لأن عبارة « ضم دولة عظمى لشيء من أملاك تركيا » يمكن أن تنسحب على الروسيا نفسها في مسألة الدردنيل » ولكنه تناول من اقتراح فرنسا موقفها ضد النمسا والمجر ذلك الموقف الذى ترحب به بلاده كل الترحيب وتنوه في رده على فرنسا بسروره له وارتياحه اليه .

ولقد كان هذا درساً لبوانكاريه فسرعان مارأى نفسه مضطراً الى أن يخطو خطوة أخرى الى الامام . لأن الخصومة بين النمسا وصربيا كانت قد اشتدت إذ كانت النمسا قد حشدت من أمد طويل جنوداً على الحدود الصربية لتستطيع الضغط على تلك الجارة العنيدة ، فقوت في باريس الريبة في خطط الحكومة النمسوية ، وجعلت رئيس الوزارة الفرنسية ينوه فى كتاب الى السفير الروسى مؤرخ فى ١٠ نوفمبر بأن الجمهورية تنتظر من الروسيا « التى يهمها الأمر كل الاهمية » اقتراحات بعينها فى صدد الاجراءات التي يجب أن تتخذ ليسع فرنسا النظر فيها . وقد تحدث بعد ذلك الى ايزفولسكي ففسر له هذه العبارة الغامضة بأن على الروسيا أن تكون البادئة بالعمل وبعبارة أخرى أن ترد على كل

اعتداء على صربيا من جانب النمسا بعمل حربي وأن فرنسا لاتتردد فى الوقوف فى صفها اذا تبينت من جانب المانيا تدخلا عسكريا . ولما أذيع من بلغراد فى أوائل ديسمبر الخبر الغير الصحيح القائل بأن مملكة الطونة عاقدة النية على غزو صربيا أبدى بوانكاريه اهتماماً شديداً جداً حتى انه لام حليفته الشرقية على أنها تقف موقفاً ينطوى على عدم المبالاة ولكن ملليران وزير الحربية الفرنسية أكد للملحق العسكرى الروسى فى باريس : « أننا (فرنسا) مستعدون فيجب أن يكون هذا فى الحساب » وقد أمكن ايزفلسكي في ١٨ ديسمبر أن يلخص أثر ذلك فى نفسه بالكلمات الآتية : « انى لم أعد في الايام الاخيرة مضطراً الى مناهضة الفكرة القائلة بأن فرنسا يمكن أن ترى نفسها داخلة فى الحرب لمصلحة غيرها ، اضطرارى الى المحاذرة من أن تقف موقفاً سلبياً أكثر مما يجب حيال مسألة تمس مركز الوفاق الثلاثي وهيبته » !

وقبل ذلك بزمن وجيز كان بوانكاريه قد ضمن فى لندن مايحمى ظهره . فان المعاهدة السرية التى كانت قائمة بين بريطانيا العظمى وفرنسا على مراكش والتى كانت الجمهورية الى ذلك الحين تجنى منها ثمرات طيبة ، كانت بفعل الحقائق الواقعة قد ألم بها القدم نوعاً ما لأن باريس كانت قد حققت فى شمال افريقيا آمالها ، ومن ثم كان أبناء السين يسعون منذ أمد طويل الى ايجاد رابطة جديدة تجعل صلاتهم بالامبراطورية البريطانية أحكم مما كانت . ولم يكن ممكناً الحصول على محالفة بالمعنى الصحيح لأن غراى كان يفهم جيداً مبلغ اعتماده على الرأي العام فى بلاده ، ذلك الأمر الذى خبره فى سنة ١٩١١ بصفة خاصة . على أنه أقر التحالف فى كتابين خاصين مؤرخين فى ٢٢ و٢٣ نوفمبر سنة ١٩١٢ تبادلهما مع السفير الفرنسى فى لندن المسيو بول كمبون إذ صرح بأنه موافق على انه اذا اتفق أن بات لدى أى من الحكومتين ( فرنسا وانجلترا ) أسباب وجيهة تتوقع معها اعتداء من جانب دولة ثالثة بدون وجه حق أو تهديداً للسلام العام ، فانها تباحث فيها الحكومة الأخرى لتنظر فيما اذا كان ينبغى عليهما

أن تعملا معاً على دفع الاعتداء وحفظ السلام ، وكائنة ما كانت الاجراءات فيجب أن تكون الدولتان مستعدتين لاتخاذها في حالة الاعتداء . فاذا كانت هذه الاجراءات تتطلب عملا مسلحاً نظر في الخطط التي تضعها هيئتا أركان الحرب وكان على الحكومتين أن تفصلا في مبلغ المدى الذي ينبغي أن يذهب اليه في تنفيذها!! ومن يلق نظرة على هذا يستبن كيف ان هذا الاتفاق كان يناسب الحوادث التي تقع في القارة ويدرك كيف كان حكم بوانكاريه عليه . فلقد كان يتوقع أن تخطو النمسا خطوتها ضد صربيا فيفسرها بسهولة بأنها تهديد للسلام العام بخاصة عند ماتتقدم الروسيا للعمل ، وهو ما كان رئيس لوزارة الفرنسية يرغب فيه ، فتقف في وجه مملكة الطونة وتدعو بذلك المانيا الى الميدان . فعندئذ تكون المناسبة قائمة « للنظر » المشترك في المسألة مع انجلترا .

* * *

كانت دولة القيصر تنظر الى الحالة في الساعة العصيبة بأهدأ من العين التي كانت تنظر بها الجمهورية اليها فقد كانت بطرسبرج تعلم حق العلم أن فينا ليست مصممة على الذهاب الى أبعد مدى . هذا الى ان الروسيا لم تكن مسلحة بالقدر الكافي على الرغم من الهمة الشديدة التي كانت تبذل لاصلاح الجيش الروسي واعداده للحرب الاوروبية . ولقد كانت تأمل ان تعرض لها الفرصة في هدوء للتقدم نحو الاستانة وخدمة مصلحتها وحدها في هذا الباب . ومن ثم حدث أن فرنسا كان يلوح عليها عقب ذلك ببضعة أشهر انها أقل ميلا الى الحرب العالمية من الدولة السلافية العظمى . أما من الجهة الاخرى فقد صرح الامبراطور غليوم الثاني في جلاء تام انه لن يزحف على باريس وموسكو بحال من الاحوال من أجل الخصومة القائمة بين الصرب والنمسا ، وانه ليس ملزما بمساعدة حليفته الا في حالة ما إذا لم تتحرش النمسا بالروسيا . وهكذا كان موقف المانيا سبباً للتفادي من الحريق العالمي .

وفي ١٦ ديسمبر سنة ١٩١٢ اجتمع في لندن ممثلو الدول العظمى والدول

المتحاربة في البلقان ليتفاوضوا في الصلح . لكنه في ٧ يناير سنة ١٩١٣ قطعت المفاوضات لان تركيا أبت تسليم أدرنه لبلغاريا فتجددت الحرب وزحف الحلفاء مرة أخرى يحف بهم النصر حتى تمت الهدنة في ١٦ ابريل . على أن الجبل الاسود قرر وحده الزحف والاستمرار في القتال ليغزو اشقودره رغم ارادة الدول العظمى جميعاً . ولم يسلم الملك نيقولا المدينة إلا بعد أن هددت النمسا بالزحف عليه . الى هنا لم تكن قلاقل البلقان قد انتهت بعد فقد أخذ المنتصرون أنفسهم يتنازعون على الغنيمة نزاعا شديداً وعلى رغم كل المساعي التي قامت بها الروسيا للمحافظة على الاتحاد بين تلك الدول التي كانت الي ذلك الحين سعيدة بحمايتها ، فان البغار انقلبوا في ٢٩ يونيه على حلفائهم السابقين الذين بادرت رومانيا لمساعدتهم ، فهزم البلغار واضطروا بصلح بخارست النهائي الذي وقعت معاهدته في ١٠ اغسطس سنة ١٩١٣ أن يقنعوا بأقل مما أصاب شعوب البلقان الاخرى بكثير

وهذا الفرو رالاليم الذي أبدته صوفيا في النهاية بتحولها ، لم يمنع الروسيا من الارتياح الى مجرى الحوادث في مجموعها فقد أنجزت جانباً كبيراً من العمل الذي كانت تقصد فيه الى توسيع نفوذها في الشرق الادنى . فتركيا كادت تخرج حينئذ من أوروبا حتى كانوا في بطرسبرج يتوقعون انحلالها العاجل. والنفع المهم الآخر الذي أصابته الروسيا كان فيما نالته صربيا من قوة زادت في نطاقها وعدد سكانها زيادة كبيرة . أما دولة البانيا التي أوجدتها الدول العظمى فقد كانت في الميزان قوة ضئيلة .. واضعاف بلغاريا في اللحظة الاخيرة كان في مصلحة الروسيا أكثر منه ضد هذه المصلحة لان أحب أبناء الجامعة السلافية وهو الشعب الصربي بات إذ ذاك وليس له بين الدول المكونة حديثاً منافس خطر .

أما الاستانة نفسها التي هي آخر أغراض الروسيا وأهمها شأنا ، فلم تقترب منها الروسيا في الواقع أكثر مما كانت فان الدول الاخرى افترضت من تلقاء

نفسها أن دولة القيصر تريد التقدم الى تلك الناحية مسايرة حرب البلقان فقدمت اقتراحاتها . فأما فرنسا فقد تعهدت فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٩١٢ بتعضيد حليفتها (بكل همة طبعاً) لكنها رجت أن تبلغها بطرسبرج الاجراءات التى تتخذها قبل تنفيذها كما كانت الحال الى الآن . وأما انجلتره فقد ارتأت في الوقت نفسه تقريباً أن تكون العاصمة التركية دولية لتحول بذلك ومن أول الامر دون امتلاك الروسيا لها . والنمسا عرضت على الروسيا أن تترك لها الحرية التامة في العمل فيما يتعلق بالمضايق إذا هى أعلنت أن لا مصلحة لها في الجزء المهم من شبه جزيرة البلقان .

هذه الاقتراحات كانت بطرسبرج تعالجها فى تحفظ ينطوي على الحذر لانها كانت تريد الطريق لنفسها حرة . وقد ارتأى سازونوف بادىء الامر أن تكون المهمة التالية هى معالجة مسألة المضايق كما عولجت في سنة ١٩٠٨ أى تخويل الدول الواقعة على سواحل البحر الاسود الحق فى أن تدخل سفنها الحربية وتخرج من المضايق فى زمن السلم بشروط معينة تضمن سلامة الاستانه . فلما جرت حوادث الحرب بعد ذلك مجراها البعيد ذهب هو أيضاً الى أبعد مما كان قد ذهب ، وفكر فى الزحف الفجائى . وقد كان الخطر قائماً فى أواخر مارس سنة ١٩١٣ من أن تمد بلغاريا يدها نحو الاستانة فنظروا إذ ذاك في الروسيا بصفة جدية فى امكان انزال جنود فى العاصمة التركية لكنهم سرعان ماعدلوا عن تنفيذ ذلك من جراء الصعوبات الحربية الفنية التى لم يمكن التغلب عليها . وفى يوليو سنة ١٩١٣ انتهزت الامبراطورية العثمانية فرصة قتال دول البلقان بعضها لبعض لتسترد أدرنة فخلق سازونوف مسألة أرمينيا وطالب الباب العالى باجراء اصلاحات فيها وأراد بهذه الكيفية أن يوجد لنفسه حجة ديبلوماسية للتقدم الى آسيا الصغرى لكن بريطانيا العظمى أمرته هنا بالوقوف كما كانت الحال دائما لانها وصفت هذا العمل بأنه بداية لحل تركية آسيا أيضاً وبذا بقيت أهم مسألة بدون حل بالنسبة للروسيا .

والآن فقد مر بوزير الخارجية الروسية نفس التطور الذى مر بسلفه ايزفولسكي في سنة ١٩٠٨ اذ حال اصدقاء بلاده السياسيون دون سيره وحده في طريقه فلم يجد مفراً من أن يلتزم الوجهة التى ترتئيها لندن وباريس وهي مخاصمة كتلة دول الوسط وبخاصة ألمانيا فقد يصبح فى الامكان التغلب على مقاومة انجلترا وفرنسا في مسألة المضايق اذا آذر المرء مصالحهما .

وأما فرنسا على الاخص فقد فعلت كل ما يمكنها لجر الروسيا الى الطريق الآنف الذكر ففي يناير سنة ١٩١٣ انتخب بوانكاريه رئيساً للجمهورية وكان قد أثر ايزفولسكي فى المعركة الانتخابية لصاحبه اذ أقنع الصحافة الباريسية بمجادلاته الطنانة بعد رشوتها . وقد أعقب الانتخاب مباشرة ان استدعى جورج لويس سفير فرنسا في بطرسبورج الى ذلك الحين من منصبه لأن رويته ووضعه مصلحة فرنسا وحدها نصب عينيه دائما كان قد أوغر صدر ايزفولسكي عليه . وحل محله دلكاسيه عدو ألمانيا القديم الذى كلف بأن يحمل القيادة العسكرية الروسية نهائيا على مد السكك الحديدية اللازمة للخطط الحربية الى الحدود الغربية وان يقدم فى هذه السبيل الوسائل اللازمة . وفى مقابل ذلك قررت الجمهورية جعل الخدمة العسكرية ثلاث سنوات كما يتسر زيادة الجيش الفرنسى زيادة هامة . ولكى يبرر هذا العمل في نظر الجمهور جعلت الاموال الروسية تفيض على الصحف . وقد حقق دلكاسيه ما أريد منه فى خلال بضعة أشهر . ففي ديسمبر سنة ١٩١٣ حصلت الروسيا على خمسمائة مليون فرنك ووعدت في مقابلها باتمام مد الخطوط الحديدية الموجهة ضد المانيا فى خمس سنوات . ولقد جرت بين سفير الحليفة الغربية وسازونوف أحاديث مفصلة عن الاغراض التى يرمي اليها كلا الفريقين من الحرب العامة اذا وقعت مثل هذه الحرب ، واستبانت الدولة السلافية العظمى مبلغ ما يمكن أن تجنيه من إحكام صلاتها بهؤلاء الاصدقاء

بهذه الكيفية تحولت الامور فى بطرسبرج تحولا مشؤوماً عجل به

حادث مع ألمانيا نورده فيما يلي : وقع فى تركيا أثناء الحرب البلقانية انقلاب داخلى قررت معه الحكومة الجديدة أن تسير بالبلاد فى سبيل التجديد سيرة جدية فولت وجهها شطر عدة دول أجنبية ترجوها أن تضع تحت تصرفها طائفة من كبار الفنيين فى مختلف الفنون . فطلبت من ايطاليا شرطة لسوريا ومن فرنسا فنيين لماليتها ومن انجلترا آخرين لأسطولها ومن ألمانيا لمعارفها وجيشها . وقد تقرر أن ينظم الجيش التركى جنرال ألماني على رأس بعثة من الضباط الالمان ، فاختار الامبراطور غليوم الثانى فى ٣٠ يونية سنة ١٩١٣ الجنرال ليمان فون سندرس . وكان الماهل الالماني قبل ذلك بشهر قد أفضى الى قيصر الروسيا ، بمناسبة مقابلة شخصية بينهما ، برجاء الباب العالى وموافقته أي الامبراطور على اجابة هذا الرجاء . ولما كان لا مناص من اجابة هذا الرجاء احتج سازونوف احتجاجاً شديداً ، ولما عينت الحكومة العثمانية ليمان فون سندرس في ديسمبر سنة ١٩١٣ أعاج ذلك التعيين وزير الخارجية الروسية اهاجة شديدة وكان أهم اعتراض له هو على أن يكون الجنرال الالمانى قائداً للفيلق التركى الاول المرابط فى الاستانة . وفي ١٣ ديسمبر قام بناء على رغبته ممثلو دول الوفاق الثلاثى في الاستانة بمسعى مشترك وسألوا الصدر الأعظم عما اذا كان استقلال الامبراطورية العثمانية قد ضمن فى الاتفاق المعقود لتوظيف الضباط الالمان وهل العقد بمس الحالة الراهنة للدردنيل ؟ ومع انهم فى القرن الذهبى لم يكونوا ميالين الى التساهل فان الصدر الاعظم حمل أخيراً بمسعى المانيا على أن يسحب من ليمان فون ساندرس قيادته على الفيلق الاول وأن يعهد اليه بالاعمال التى يتطلبها اصلاح الجيش فقط . والسبب الحقيقي الذي من أجله اعترض سازونوف كان فى أن تقوية الباب العالى من الوجهة الحربية الآن وبعد أن زعزعت دول البلقان مركزه الزعزعة المطلوبة ، لم يكن فيما يتعلق بمسألة المضايق مما يطيقه سازونوف اذ كان

يخشى اذا جعل ليمان فون ساندرس مقره فى الاستانة أن يكمل الاستحكامات حول هذا المكان المشتهي وهذا يتعارض مع نياته الخفية .

فى الوقت الذى كان هذا النزاع قائماً فى اثنائه كتب سازونوف في ٨ ديسمبر سنة ١٩١٣ تقريراً مفصلا الى القيصر أبان فيه أنه ينبغى أن لاتسمح الروسيا لدولة أخرى بالسيادة على المضايق وأنها (أي الروسيا) يجب أن تستعد للتقدم عسكرياً نحو البوسفور . وهذا يفسر الموقف الشديد الذي وقفه سازونوف في مسألة ليمان فون ساندرس على أنه سرعان ما استخلص من التجارب التى مرت به أن مسألة المضايق يصعب ان تتقدم الا من طريق المشاكل الاوربية . ولذا استحوزت عليه فكرة الحرب العظمى باعتبار انها الطريق المؤدية الى تحقيق اغراض بلاده القومية نهائيا . فلقد رأى فى تلك الاثناء كيف ان الروسيا لم يسعها وحدها ان تقوم بشيء كثير فضلا عن ان عناية الالمان بتجديد الامبراطورية العثمانية قوي فيه الاعتقاد بأن مضى الروسيا مع انجلترة وفرنسا ضد دول الوسط هو الواسطة المناسبة لتحقيق الغاية التى تسعى اليها . وقد اكد فى اجتماع للوزراء فى ٢١ فبراير ١٩١٤ مرة اخرى انه لايسع احدا ان يفرض ان عملياتنا الموجهة ضد المضايق تتم بدون حرب اوربية عامة . فما كان يدور له من تلقاء نفسه فيما مضى من الزمان اصبح الآن ضرورة لازمة بات من المقرر انها تهدد السلام الاوربي اعظم تهديد . حتى لو كان الروسيون لم يرغبوا مباشرة في حرب عالمية فانهم كانوا يرون هذه الحرب الأداة الاخيرة لتحقيق اعظم رغباتهم .

ولقد كان خطر السياسة الروسية فى البلقان يتفاقم بانبعاث الروسيين نحو الاستانة . فهنا فى البلقان كان يحدث كل مايمكن أن يخطر بالبال لاساءة مركز النمسا والمجر ، كما كان العمل يأخذ على قدم وساق فى عدة أماكن . فعنى أولا بأمر الصرب عناية خاصة ، إذ كان هذا الشعب لم تشعره انتصاراته ومافاز به فى حرب البلقان بل قوت نهمه الى المزيد . فانه فى خلال المفاوضة

فى تقسيم الغنيمة التركية كانت بلغراد لاتنى عن تقديم مطالب جديدة كانت لندن وباريس أيضاً تريان شطبها كما كانت هذه المطالب تزيد الهوة بينها وبين بلغاريا اتساعاً . وقد كانت بطرسبورغ تنصح بالاعتدال لكن هذه النصائح كانت من أجل المستقبل . فقد كتب سازونوف الى هارتفيج فى ٦ مايو — على سبيل المثال — يقول : «ان صربيا قد قطعت توة أول مرحلة فى طريقها التاريخى ، ويجب عليها لتحقيق غرضها أن تخوض غمار حرب هائلة يمكن أن يتعرض فيها كيانها كله للخطر . والارض التى تبغيها صربيا موجودة ضمن النمسا والمجر بحالتها القائمة اليوم . والزمن يعمل فى مصلحة صربيا وخراب أعدائها الذين تدل حالهم على التفكك » . وعقب ذلك بستة أيام أرسل وزير صربيا المفوض فى بطرسبرج الى حكومته برقية تتفق وماتقدم . قال : لقد أخبرنى سازونوف مرة أخرى اننا يجب أن نعمل للمستقبل واننا سنحصل من النمسا على أرض كثيرة !! ولكي تجعل هذه الدولة البلقانية التى تطورت تطوراً قوياً أقوى مما هي حاولت الروسيا فى الأشهر الاولى من سنة ١٩١٤ أن تمهد لاندماج الجبل الاسود فيها . وهو مااعتبرته النمسا مما لايمكن السماح به .

وكانت النمسا إذ ذاك قد أزعجها قبل كل شىء تلك الحركة التى كانت آخذة فى الظهور بشدة ازدادت على مر الايام ، وهى الحركه التى كانت ترمى في صربيا الى تحرير الصرب النازلين فى بعض بلاد آل هابسبرج فعادت الى الأخذ بفكرة ايرنتال القديمة وهى تحريض بلغاريا على صربيا . وقد كان ذلك سبباً فى اختلاف الآراء مع برلين اختلافاً شديداً الى حد ما . وحقيقة انهم كانوا فى برلين مستعدين لأن يوحدوا فى صوفيا ميلا الى تعضيد الدول الوسطى بأن يعطوها قرضاً لكنهم لم يريدوا أن يستمعوا الى اغراض موجهة إلى بلغراد فعدوا من حديد بنصحون لوزارة الخارجية النمسوية بالتحول.

ولقد أصاب مركز النمسا والمجر صدمة حاسمة لما أن وفق سازونوف الى فصل رومانيا عن دول الوسط . فان هذه الدولة التى كانت كبرى دول البلقان

كانت كما هو معروف منذ ايام بسمرك مرتبطة مع دول المحالفة الثلاثية باتفاق جدد مرة أخرى في سنة ١٩١٢ ولكنه منذ تلك السنة أخذ وزير الخارجية الروسية يعمل باستمرار على زعزعة آخر حجر في صرح المستشار الامبراطوري الالماني الاول فدخلت رومانيا مؤتمر لندن بناء على مسعاه ورأت هذه نفسها بهذا المسعى داخلة ضمن دائرة الدول الاوروبية . ثم عرف سازونوف في خلال مفاوضات بطرسبرج بين ممثلي دول الوفاق الثلاثي ودول الوسط — تلك المفاوضات التي جرت في سنة ١٩١٣ وكان موضوعها مطالب رومانيا الخاصة بتوسيع مناطقها — نقول عرف سازونوف كيف يخلق دائما في بخارست شعوراً وديا بالنسبة للروسيا . ولقد ساعد سفير انجلترا في بطرسبرج بوكنان الذي كان يمثل بريطانيا العظمى في تلك المفاوضات على اقناع رومانيا بانها يسعها في دائرة المحالفة الثلاثية أن تخدم مصالحها خيراً من خدمتها في أية ناحية أخرى . ولقد كتب ايزفولسكي في ١٤ اغسطس سنة ١٩١٣ الى سازونوف يثني عليه بقوله: لقد كنت دائما اعتبر فصلك رومانيا عن النمسا آية تتوج أعمالك السياسية» .

وفي أواسط سنة ١٩١٤ وصل هذا العمل الى القمة لما منح كارل ملك رومانيا عصا المارشالية فكان هذا تكريماً له كما كرم ولي عهده لما دعي الى ازاحة الستار عن تمثال في الروسيا . وأخيراً زار القيصر نيقولا الثاني الملك كارل في أول يونيه سنة ١٩١٤ في كونستانزا ، فجرى اذ ذاك لسازونوف الذي كان يصحب قيصره حديث طويل مع رئيس الوزارة الرومانية براتيانو سأله في سياقه وزير الخارجية الروسية بصريح العبارة « كيف يكون موقف رومانيا في حالة وقوع حرب بين النمسا والمجر وبين الروسيا اذا اضطرت الروسيا الظروف الى بدء القتال» ولئن كان برتيانو راوغه في الجواب واندهش من امكان وقوع حرب جدية فقد جعله يستشف من رده أن بلاده ليست مكلفة بحال من الاحوال بمساعدة النمسا والمجر . فارتاح سازونوف الى هذا وعد زيارته لكونستانزا بحق توفيقاً كبيراً . ذلك انه في اللحظة التي لم تعد فيها النمسا والمجر تستطيع

أن تعتمد على رومانيا تزعزع آخر عماد حقيقي كانت تستند اليه لتدعيم نفوذها في الشرق الادنى ولم يصبح أمامها إلا بلغاريا غير المضمونة والتي كانت تخطب ودها بحراره وصربيا العدوة . وبذلك تحطم آخر أمل في صد تيار مساعي الجامعة السلافية الدائم للبلقان .

ولقد كان سازونوف كلما أنعم النظر في الاحتمالات التي تؤدي به الى تحقيق أغراضه السياسية — تلك الاحتمالات التي كان أحدها وهو «الاصطدام المسلح» يلعب في تفكيره دوراً كبيراً — يجد أمامه رقما كبيراً مجهولا لا يريد أن يدخل في حسابه دخولا يطمئن اليه . وذلك الرقم هو انجلتره . فقد ذكر فرنسا في تقريره الذي أسلفنا الاشارة اليه والذي بعث به الى القيصر بأنها معين يعتمد عليه في حالة الحرب : وقد صرح سازونوف بصريح العبارة في اجتماع لمجلس الوزراء عقد في ١٣ يناير سنة ١٩١٤ بمناسبة التوتر الذي حدث من جراء ايمان فون ساندرس ، انه يسع الحكومة الروسية ان تنتظر من جانب الجمهورية «أعظم ما يمكن من مساعدة فعالة ... فقد أكد المسيو دلكاسيه باسم وزير الخارجية الفرنسية أن فرنسا ستفعل ما تريده الروسيا» . وقد جاء في تلك الوثيقه الآنفة الذكر فوق الذي ذكرناه الآن في معرض الكلام عن بريطانيا العظمى أن ولاة الامور في الروسيا يجب «قبل أن يتخذوا خطوات حاسمة أن يتأكدوا من مساعدة وزارة لندن لان الوزير يرى أن اشتراكها الفعلي يلوح غير مضمون» . وهذا القول عن انجلتره بعد ذلك الموقف الذي وقفته حيال مسألة المضايق وأشرنا اليه مراراً لا يبعث على الدهشة بحال من الاحوال . على أنه من أجل هذا الموقف فعلت الروسيا كل شيء من شأنه تذليل تلك الصعوبة القائمة من ناحيته .

ففي ابريل ١٩١٤ انتهز وزير الخارجية الفرنسية المسيو دومرج زيارة ملك الانجليز لباريس ليقنع السير ادوارد غراى الذي كان حاضراً هذه الزيارة

بضرورة عقد اتفاق بحري مع الروسيا ، وكان ذلك بناء على رغبة القيصر نيقولا الثاني الخاصة . فما كان أشد دهشة ممثلي الجمهورية الذين حصروا المحادثات التي أجريت لهذا الغرض، حين رأوا «استعداد السير ادوارد غراي الجلي للاقدام على التقرب من الروسيا وجعل علاقاته بها أوثق مما هي » وفي الواقع أن المفاوضات بدأت في هذا الاتفاق عقب ذلك مباشرة واتفق الفريقان على التفاصيل . وقد عنى الروسيون في خلالها باسدال الاستار في حيطة ومهارة على موقفهم حيال مسألة المضايق لأنهم كانوا يحاذرون بطبيعة الحال أن يضيع من أيديهم الغنم الهائل الذي يكسبهم اياه عقد اتفاق ثابت مع الجزر البريطانية . وهكذا عادت سياسة سازونوف فتقدمت تقدما هاماً حاسما . وبات في سعيه الى الامام لا يرعاه شيء كتأكده من الدولة البريطانية وقت الشدة

انه لو تمثل المرء حوادث السنوات الاخيرة التي أتينا على وصفها هنا لوصل الى أن أوربا كانت تسير تدريجا الى حالة لاشفاء منها . فان الانقسام الذي طالما ذكرناه كان قد أفضى الى حالة من المنازعة الديبلوماسية المتبادلة باتت منذ ابتداء حروب البلقان بصفة خاصة تهدد على الدوام تقريبا بانفجارات . وظاهر في هذا الصدد كل الظهور أن ارادة العدوان كان متجلية في جانب الوفاق الثلاثي وعلى الاخص من ناحية الروسيا . فلقد كان من شأن الانقلاب الاساسي الذي وقع في الشرق الادنى لمصلحة الروسيا ان اضطر النمسا والمجر ومعها ألمانيا الى الوقوف موقف الدفاع تماما . واذا نظرنا الى الجانبين من الوجهة السياسية المحضة ألفينا أن كفة دول الوفاق الثلاثي كانت راجحة كثيراً ووجدنا أنها كانت كذلك أيضا من الوجهة الحربية . فان القوى البرية التي كانت على استعداد في انجلترة وفرنسا كانت في رأي «أعظم الثقاة الفرنسيين والبريطانيين على السواء » معادلة لقوي الالمان . والقوي الحربية التي كان يتألف منها جيش فرنسا والروسيا المتحد كانت تبلغ ٥ ملايين من الرجال بينما كانت هذه القوى لاتتجاوز عند ألمانيا والنمسا والمجر ٣٫٣٥٨٫٠٠٠

رجل . والاسطول الالماني كانت نسبته الى الاسطول الانجليزي كما سلم أخيرا الاميرال تربتس كنسبة ١٠ الى ١٦ فضلا عن أن بريطانيا العظمى كانت تشعر بأنها من التفوق بحيث تستطيع أن تحمي شواطىء فرنسا الشمالية والغربية . وفي الشمال كان قد اتفق على أن تتعاون السفن الانجليزية مع السفن الروسية أما في البحر الابيض المتوسط فكان هنالك الاسطول الفرنسي الذي كان بلا ريب متفوقا على الاسطول النمسوي . واذن فقد كان ثمة تفوق هائل في ناحية الوفاق الثلاثي . ولقد زاد في اختلال التوازن بين الفريقين في غير مصلحة دول الوسط ان النمسا والمجر كانت تعاني في الواقع مرضاً داخليا عضالا ، فقد كانت الشعوب التي تضمها متنافرة تريد الانفضاض من حولها ، وكانت فكرة الاتحاد القومي — تلك الفكرة العظيمة الموفقة التي أوجدت الامبراطورية الالمانية الحديثة أيضا — تهز في الكيان المفتعل الذي كان يؤلف دولة هابسبورغ هزا مسموعاً ، فكانت الروسيا تقدر التداعي النهائي لاراضي الطونة وتضع الخطط السمحة لتوزيع تلك الاراضي . فاذا أضفنا الى ذلك ضعف مركز المانيا الجغرافي المحسوس لان حدودها في الشرق والغرب طويلة مفتوحة ، ظهرت لنا قوة الفريق الآخر أوضح وأجلى .

وللحياة السياسية في كل مكان قانون ثقل يدفع القوي ضد الضعيف وقد كان هذا القانون منذ ١٩١٢ على الاخص ساريا يؤثر في الحالة العامة الى حد ان كل محاولة من جانب دول الوسط للمحافظة على الحالة الراهنة كانت تراها دول الوفاق الثلاثي جرأة وتبجحا . ولقد أعلن بوانكاريه عقب تسوية مسألة الجنرال ليمان فون ساندرس أن صبر الروسيا قد نفد وأن أي نزاع آخر سيؤدي الى الحرب . ونسي وهو يقول ذلك أن الانقلاب العام الذي حدث في البلقان كان تحرشاً عظيما بدول الوسط بينما كانت هذه تجتهد في الواقع في انقاذ مايمكن انقاذه وليس أسخف من الزعم بأن دول الوفاق الثلاثي كانت تخشى كتلة دول الوسط . حقا لقد كانت المانيا مسلحة تسليحا

قويا بديعاً لكنه ماقيمة هذا بأزاء الاجراءات التى كانت دول الوفاق تطوقها بها ! لقد صاحت بطرسبرغ مباهية عند ماأرادت بعض الدوائر الاشتراكية منع اجهاد قوى الجمهورية الدفاعية تقول : « اننا مستعدون ويجب أن تكون فرنسا أيضاً مستعدة »

لقد كان الجو كله مفعما بسوء الظن والارتياب المتبادل والمغالاة فى الشعور بالعزة القومية ، فالحرب كانت قائمة فى صورة مافى تلك الاذهان المهتاجة . وقد زعموا أنهم يتسلحون للمحافظة على السلام ، والواقع انه كان من وراء ذلك الزعم سعي حثيث فى سبيل الحصول على مايضمن لهم التفوق والغلبة اذا مانشب ذلك الصدام المسلح . ولقد كانت حجة الفرنسيين في جعل الخدمة العسكرية لمدة ثلاث سنوات — وهو مالم يستطع الشعب الفرنسى احتماله كما قال وزير بلجيكا المفوض فى باريس — ان المانيا كانت قد قررت في نفس الوقت تقريباً زيادة جيشها . وقد قررت فرنسا فى تلك المدة للخدمة العسكرية دون أن تتساءل هل تنقض عن كاهلها اعباء تلك الخدمة أم تستخدمها فى الضربة التى تضربها في الحرب . وزيادة الجيش الالمانى أمر كان قد اقتضاه الضعف الذى بدا على موقف النمسا والمجر فى البلقان . وهكذا كان الفريقان يتباريان دائما فى اجهاد انفسهما حتى باتت القارة كلها من حدود انكلترا الشمالية الى البحر الابيض المتوسط ، ومن سيبريا الى المحيط الاطلانطيقي أشبه بمعسكر تتصاعد منه رائحة البارود . وشرارة واحدة كانت خليقة أن تحرق المخزن كله وقد قدحها صيف سنة ١٩١٤ فكان انفجار لم يعرف رعبه تاريخ الانسانية قبل ذلك الحين .

obeikandl.com

# ٦

# نشوب الحرب العالمية

obeikandl.com

فى ٢٨ يونيه سنة ١٩١٤ قتل في ساراجيفو عاصمة البوسنة ولى عهد النمسا والمجر فرانتس فرديناند وزوجته ، وكان قدذهب الى تلك الجهة ليشترك في المناورات . فأما قتلته فكانوا من حيث تبعيتهم من أهالى مملكة الطونة لكنهم من حيث الجنس والقومية صربيون . والمحرض على الجريمة هو ، كما ثبت فيما بعد ، رئيس قلم المخابرات فى هيئة أركان حرب صربيا الميرالاى ديمتريفتش . وكان هذا الوطنى المتعصب اذ ذاك منتميا الى جمعية اليدالسوداء السرية — تلك الجمعية الصربية القوية الكبيرة التى كانت قد أخذت على نفسها أن تعمل بكل وسائل الدعاية والعنف على تحقيق فكرة صربيا العظمى ومن مقتضياتها ضم البوسنة والهرسك قبل كل شىء . وهنالك دلائل بعينها على أن أنصار هذا الرأي كانوا يحسون من الغراندوق فرنتس فرديناند على الاخص عرقلة مساعيهم الطموحة ويجدون فيه عقبة كأداء في سبيل تحقيقها لانه كان يفكر في اجراء اصلاح سياسى فى النمسا والمجر استبعادا للمنازعات القومية داخل حدودها . كان يريد أن يضيف الى المملكة الثنائيه التى كان مظهرها انضمام النمسا المستقلة الى المجر المستقلة — فريقاً ثالثا مستقلا من أنحاء الامبراطورية المأهولة بالسلافيين ليزيد بذلك رابطتهم بالكل احكاما . بيد أن بعث الروح في سلطان هابسبورج القديم وتقوية هذا السلطان من الداخل كان يتعارض بطبيعة الحال مع مساعي تلك القوى التى كان الغرض من توسعها هو ، على النقيض مما تقدم ، انحلال مملكة الطونة . والى هذه القوى كانت تنتمى في الصف الاول جمعيات صربيا الكبرى السرية التى ازداد نفوذها في بلادها ازدياداً كبيراً من جراء الحروب السعيدة التى خيض غمارها فى السنوات الاخيرة . ولقد بلغ من نفوذ هذه الجمعيات ان نفس حكومة بلغرادما كانت لتستطيع الوقوف لاعمالها وحركاتها وقفة جدية ، لو أنها حدثت نفسها بذلك . فقد كانت وزارة

باستش التي كانت بيدها مقاليد صربيا السياسية حينذاك تعلم بالجريمة المنوية لكنها لم تجرؤ على أن تتخذ اجراءات فعالة لاحباطها . وليس ثمت مطعن فى أن ديمتريفتش كان في الدور الهام الذي لعبه على اتصال وثيق بالملحق الحربي الروسى في بلغراد بخاصة اذا ذكرنا الدور الخطير الذى قامت به وكالة الروسيا السياسية منذ ابتعاث هارتفيج الى صربيا .

وقد رأى رجال فينا أنفسهم حيال حادث مزعج حاسم اذ أردت ولى عهد امبراطور هم الموهوب فرانسوا جوزيف أيدي القتلة ، وأصيبت الملكية نفسها بضربة وهى التى كانت الضمانة الاخيرة المأمونة لتماسك أجزاء الامبراطورية المتطاحنة من جراء نزعاتها القومية . وهي ضربة أصابتها من تلك التيارات التى كانت تعمل منذ زمن مديد على تحطيم ذلك الكل . واذن فقد كان أهم عصب حيوى للدولة مهدداً . حتى الكتاب الازرق البريطاني قد سلم صراحة : «بان النمسا قد استفزت . وكان يحق لها أن تشكو من حركة شعبية خطرة ضد حكومتها» . فاما أن صربيا كانت توجه هذه «الحركة الشعبية» وتديرها فامر كانت تعلمه فينا علم اليقين من تجاربها المرة التى دامت عدة سنين .

لذلك قررت النمسا أن تستجم نفسها للعمل . وكانت تعلم بلاريب أن برلين لم تكن الى ذلك الحين توافق كثيرا على عمل سياسى موجه ضد صربيا . فقد ثبت أخيرا بمناسبة مقابلة تمت فى ١٣ يونيه سنة ١٩١٤ بين الامبراطور غليوم والقراندوق فرنتس فرديناند فى كونوبشت أن المانيا لم يكن ليعتمد عليها بحال من الاحوال فى عمل كهذا . فلما أن وقع هذا الحادث رأت النمسا في وقت كان لا يزال فيه أثر الجريمة ووقعها حياً فى النفوس ، في وقت كان فيه العالم أجمع يراها عملا مقززا — في هذا الوقت رأت النمسا أن تبتعث الكونت هيوس الى عاصمة الامبراطورية الالمانية ليحصل على موافقة ولاة الامور على عمل ضد الجارة الخطرة . وقد قدم بهذه المناسبة من وزير الخارجية النمسوية اذ ذاك الكونت برشتولد مذكرة كانت مكتوبة من قبل وكان الباعث

الاكبر عليها موقف رومانيا المنطوي على التردد . وهي مذكرة تناولت الحالة في بلاد البلقان وارتأت العمل على ضم بلغاريا الى دول الوسط بمحالفة ليستطاع بذلك موازنة الدول الواقعة تحت النفوذ الروسي . وفوق ذلك فقد نوه الامبراطور فرانسوا جوزيف فى كتاب بخط يده بان السياسة التى ينبغي اتباعها فى المستقبل يجب أن ترمي الى «عزل صربيا وتصغيرها»

وقد وافقت الحكومة الالمانية فى ٥ يوليه على وجهة النظر هذه بقضها وقضيضها ، لانه لم يكن يسعها أن تتجاهل أن النمسا والمجر كانت مهددة من ناحية تلك الحركة التى كان يقوم بها أنصار الجامعة السلافية من الروسيين والصربيين . لكنها أعلنت انها لا تستطيع أن تتخذ موقفاً حيال المسائل المعلقة بين فينا وبلغراد بحال من الاحوال وان كانت ستقف الى جانب النمسا والمجر عملا بواجبات التحالف واخلاصاً للصداقة القديمة . وهذا تأكيد كان يرى لازما ومتفقاً مع الموقف الذي اتخذ الى ذلك الحين حتى لا يداخل الحليفة أن المانيا تريد أن تتركها وشأنها . وهذا ماظلت المانيا تفعله منذ سنة ١٩٠٨ فى كل الازمات تفاديا من فقدان الصديق الوحيد المضمون . واذا كانت المانيا قد أطلقت الآن لمملكة الطونة حرية العمل ضد صربيا فقد حدث هذا لبواعث مختلفه منها : ان الامبراطور غليوم على الخصوص كان يعتقد مغالاة منه فى تقدير الشعور بالتماسك بين الاسر المالكة أن الملوك الآخرين والحكومات الاخرى في أوروبا سترى فى مقتل ولى العهد سبباً كافيا لعمل تأديبي تقوم به الامة المجنى عليها . وفيما عدا ذلك فقد كانت المانيا تتوقع أن يبقى الخصام محصوراً بين النمسا وصربيا ، معتقدة أن الروسيا لم تكن قد انتهت بعد من تسليحاتها . وفوق ذلك فقد كانت المانيا ترجو وملؤها الثقة ألا تشترك انجلتره فى حرب تدور بين الروسيا وفرنسا من جانب ودول الوسط من جانب آخر وبذا تتوقع الا تذهب باريس وبطرسبورج الي أبعد مدى . هذا الى أن اتفاقا بين لندن وبرلين على المستعمرات البرتغالية

موسكة حديداً بغداد كان فى ذلك الحين معدا للتوقيم ترى فيه وزارة الخارجية الالمانية ضمانة لتحسين العلاقات الالمانية بالجزر البريطانية .

وهذا الحكم على الحالة العامة كان أكبر خطأ ارتكبه مصرفو أمور المانيا السياسية فانهم قللوا من شأن اتحاد الطرف الآخر وتصميمه .

كذلك ساسة فينا ارتكبوا اخطاء باهظة فبدلا من أن يستغلوا الانفعال العام والاستياء من جريمة ساراجيفوا ويعملوا فى الحال أمرت النمسا والمجر باجراء تحقيق قضائى في الجريمة استغرق أسابيع عديدة فاضاعت بذلك فرصة الحالة النفسية التى كانت في مصلحتها وساعد الزمن مناصري صربيا .

وفى ٢٠ يوليه وصل بوانكاريه رئيس الجمهورية الفرنسية الى بطرسبرج في زيارة كانت مقررة من قبل . وما في أيدينا مما يتناول وصف اقامته في العاصمة الروسية ، اقامة استغرقت ثلاثة أيام ، يدل على أن رغبة شديدة في القتال كانت تسود بالفعل دوائر نافذة الكلمة على نهر النيفا . فان كريمة ملك الجبل الاسود الغراندوقة أناستاسيا حدثت سفير الجمهورية باليولوج في احدى الولائم بان أباها أبرق يقول ان الحرب ستنشب قبل آخر الشهر ، ثم أضافت الى ذلك قولها «انه لن يبقى من النمسا شيء ... وأنتم (أى الفرنسيون) ستستردون الالزاس واللورين ... وسنقضي على المانيا» أما بوانكاريه فكان مهتما بأن يؤيد الروسيا فى موقف حازم ، وقبيل سفره أكد وزعماء الروسيا «التعهدات التى تفرضها المحالفة على كلا البلدين ( الروسيا وفرنسا ) تأكيداً رسمياً » وبذا عرفوا في بطرسبورج ان فرنسا مستعدة لامتشاق الحسام اذا ما أفضى النزاع النمسوى الصربى الى حرب أوروبية تنشب اذا لجأت الروسيا الى سلاحها انتصاراً لصربيا .

وفي مساء ٢٣ يوليه قدم في بلغراد انذار النمسا النهائي الى صربيا . وكان تحتوى على طائفة من المطالب والاجراءات مصوغة في قالب شديد اللهجة وموجهة ضد الدعاية المعادية للنمسا وضد الجمعيات السرية ومن ساعدوا مساعدى

قتلة ساراجيفو . وكان فحوى هذا الانذار قد أبلغ برلين بتفاصيله قبل تقديمه بأربع وعشرين ساعة مما جعل من غير الممكن محاولة التأثير على النمسا . وفي ٢٥ يوليه وفي الساعة السادسة مساء جاء رد الحكومة الصربية وكان مصوغ في قالب ينطوي على الفطنة والمهارة الزائدة فقد قبلت تلك الحكومة جميع مطالب الانذار النهائي تقريبا ولكن في الغالب مع شيء من التشذيب يراد به تخفيف الاجراءات المطلوبة تخفيفاً كان في بعض المواضع بمثابة روغان من تلك الاجراءات . وقد رفض المطلب الذي فرضت فيه النمسا اشتراك موظفين من جانبها في التحقيق الخاص بالقتلة . وهكذا كانت المذكرة الصربية لم يتبينها لاول وهلة قبولا تاما للمطالب المقدمة حتى أن الامبراطور غليوم رأى إذ ذاك انه قد زال بها كل سبب للحرب . لكنهم في بلغراد نفسها كانوا كما يظهر يرون غير هذا الرأي اذ أنه قبل تقديم الرد السالف الذكر بثلاث ساعات أعلنت التعبئة الصربية لانهم كانوا يتوقعون أن فينا لن ترضى بردهم وكانوا مصيبين في تكهنهم ، فقد غادر الوزير النمسوي المفوض بلغراد وصدر الامر في منتصف الساعة التاسعة بالتعبئة الجزئية ضد صربيا .

أما صربيا التي باتت من ذلك الحين مهددة من ناحية جارتها الكبيرة فقد تعزت في ساعة الضيق بأمر هام بل حاسم هو أن وزير خارجية الروسيا سازونوف كان قد صرح فعلا في ٢٤ يوليه بان النزاع القائم بين فينا وبلغراد مسألة أوروبية وأن الروسيا لن تطيق عدوان النمسا والمجر وقد نشر هذا التصريح عقب ذلك بقليل في بلاغ رسمي . وأكثر من المحتمل أن بلغراد تلقت تأكيدات بهذا المعنى . وفي ٢٤ يوليه نفسه وضع مجلس الوزراء الروسي نصب عينه الاستعدادات الحربية الاولى . وفي ٢٧ يوليه رفض سازونوف كل محاولة من جانب باريس للتأثير في موقفه بالاعتدال . وهكذا حال الخلاف بين البلدين مسألة تتناولها الوزارات جميعاً ، ذلك أن دول أوربا كانت كما نعلم مرتبطة بعضها ببعض بواسطة محالفات يمكن أن تجر كل واحدة

منها الى حرب عامة اذا حدث احداهن نفسها بحمل سلاحها انتصاراً لجانب ما

والسبب الذي من أجله تدخلت الدولة السلافيـة العظمى ظاهر ، فلو ان النمسا والمجر وفقت إلى ضرب صربيا ضربة قاضية لحدث للنفوذ الروسى في البلقان — ذلك النفوذ الذى قام على حروب سنتى ١٩١٢ و١٩١٣ — رد فعل محسوس ان لم يلحقه الفناء . واذ ذاك يصبح عمل السنين الاخيرة ضرباً من العبث . وقد تبرأ مملكة الطونة فتتداعى دعامة آمال الجامعة السلافيـة وأعمالها في الشرق الادنى وهي صربيا

ولقد كانت الحكومة الالمانية واقعة إلى حد ما بين نارين : فمن جانب روسيا المهددة ، ومن الجانب الآخر حليفتهـا التى دفعتهـا الحوادث الى الاقدام على عمل قاس — تلك الحليفة التى سمح لها فى شىء من عدم الحيطة وقلة الحذر بالاستقلال فى العمل .

وقد نشطت لندن وبرلين لاتقاء أسوأ الاحتمالات ففي ٢٥ يولية اقترح وزير خارجية بريطانيا أن تتوسط المانيا وانجلترا وفرنسا وايطاليا لدى فينا وبطرسبرج ، فوافقت الحكومة الالمانيـة وأكدت من جانبها — لكي تهدىء من روع الروسيا — ان مملكة آل هابسبرج لاتنتوى المطالبة بشىء من أملاك صربيا أو بعبارة أخرى الافتئات على حجم الدولة المحسوبة على الروسيا .وفى ٢٦ يولية استبان غراي ترددا عند مادعا إلى عقد مؤتمر في لندن يبدى رأيه ايضاً فى النزاع القائم بين مملكة الطونة وصربيا. وهذا أمر لم تكن المانيا تستطيع قبوله لانها كانت ترى فى هذا النزاع مسألة قائمة بذاتها لكنها عوضاً من ذلك وافقت في ٢٧ يولية على نصيحة تلقتها من بطرسبرج من سفيرها وسازونوف معاً وكانت هذه النصيحة تقضى باجراء محادثات مباشرة بين الحكومتين الروسية والنمسوية كذلك أحالت المانيا على فينا اقتراحا جديداً من جانب الانجليز باعتبار الرد الصربى أساساً للمحادثات تدور واوصتها به خيراً . وفي تلك الاثناء كان سفير المانيا في لندن قد بعث يقول انه إذا لم

تتساهل مملكة الطونة فلا تعتمد برلين — وهذا ماقاله وزير الخارجية البريطانية — على عطف انجلترا ومؤازرة بريطانيا . وكان هذا نذيراً جديداً بخطر الحرب العالمية إذ أدركت المانيا ان بريطانيا العظمى ايضاً تريد في ظروف بعينها أن تتخذ على الاقل موقفاً غير ودي . وقد وقع في نفس السفير الروسي من موقف غراي حينذاك ان اعتماد برلين وفينا على حيدة انجلترا لم يعد ذا أساس .

على انه قد حدث فى ٢٨ يوليه ماغير الحالة مرة أخرى إذ اعلنت النمسا الحرب على صربيا . ولكي تحول المانيا دون وقوع ارتباكات جديدة اقترحت أن تنوه مملكة الطونة من نفسها لدي بطرسبورج بانها لاترمى الى الاستيلاء على أرض صربية وانها ستقف الحرب ببلوغ بلغراد كيما تظهر بذلك ان الحملة انما كانت لتأديب الجارة الشكسة .

وقد وافق غراي أيضاً على هذا الرأي الاخير لكن اجراءات من جانب الروسيا كانت قد سبقت الخطوة التى خطتها النمسا والمجر فزادت في خطورة الحالة . فانه فى ٢٦ يولية أمرت بطرسبورج بالاستعداد للحرب في كافة انحاء الروسيا الاوروبية ووصلت الى برلين أخبار متواترة عن تنقلات للجنود الروسية وأمور أخرى تبعث على الريبة وتحمل على الاعتقاد بأنهم فى بطرسبرج قد اتخذوا العدة لشر احتمال . كذلك كانت الحال مع الاخبار الواردة من فرنسا . وقدتلقي سفير المانيا في بطرسبرج في ٢٩ يولية أمراً من حكومته بان يلفت سازونوف بصفة جدية الى أن المضى خطوة أخرى فى سبيل اجراءات التعبئة سيحمل المانيا على حشد جيشها أيضاً . وفوق ذلك فقد أبرق الامبراطور غليوم الثاني الى القيصر يرجوه أن يعدل عن كل اجراء مهدد ، وبذلك أمكن على الاقل أن يسحب نيقولا الثاني الامر الذي كان قد أصدره بالتعبئة العامة وان يأمر فقط بتعبئة جزئية ضدالنمسا . لكن الحجرلم يقف رغم هذا بل ظل يتدحرج . فانه فى نفس الوقت جاء من لندن

ان غراي أعلن على سبيل التحذير انه قد يسع بلاده أن تقف على الحياد في حرب تنشب بين النمسا والروسيا لكنه اذا دخلت المانيا وفرنسا في الحرب فستجد نفسها مضطرة الى اتخاذ قرارات سريعة . من ذلك الحين ضاعفت وزارة الخارجية الالمانية همتها في الضغط على فينا والنصح لها بالاعتدال فلم تلح فقط باجراء مفاوضات بل أكدت ايضاً أنها ترفض أن تجرها فينا بسهولة الى حرب عالمية . وقد اجابتها النمسا جوابا نصف مرض اذ أبدت استعدادها للتصريح بانها قد صرفت النظر عن الاستيلاء على ارض صربية .

لكن الأفق كان يزداد ظلاماً فان سازونوف ارتأى في ٣٠ يولية التوسط وطلب أن تخفف النمسا بلاغها النهائي الى الصرب . وكان نفسه لا يعتقد في امكان تنفيذ هذه الفكرة لانه بعد ذلك ببضع ساعات تمكن من اقناع القيصر بان يأمر بعدم الرجوع في التعبئة العامة وبذا وقع المحذور ولم يعد ثمة أمل مافي نجاح أي مسعى لتجنب الكارثة . فقد عقدت الروسيا النية على ان تحل النزاع بحد السيف لان التعبئة العامة كان معناها عقد النية على الحرب .

ولقد جاء بعد الاوان خبر مؤداه ان النمسا تريد الدخول في محادثات مباشرة مع بطرسبرج . كذلك جاء بعد الاوان كل مسعى آخر لوقف الآلة الحربية التي كانت قد أديرت . ولقد جاهدت كل من حكومتي برلين ولندن جهاداً شديداً لمنع المصاب لكن الفصل في تلك الساعة لم يكن للمشاورات السياسية بل كان لحكم الاراء العسكرية . وهذا الحكم كان قد اقتضاه من جانب الوفاق الثلاثي ما عقد الى ذلك الحين من اتفاقات ومامر من حوادث . فاننا نذكر ان بوانكاريه فسر رأي حكومته في خريف سنة ١٩١٢ بان على الروسيا أن تخطو الخطوة الاولى وان فرنسا مستعدة لان تقوم في تلك اللحظة بواجب التحالف متى ما استبانت تدخلا حربياً من جانب المانيا لمساعدة النمسا فاما الخطوة الاولى فقد خطتها الروسيا بالتعبئة العامة . وقد تلا التعبئة الجزئية

التي أمرت بها الروسيا ضد النمسا أن امرت فرنسا فى ٣٠ يولية بحراسة الحدود فلما بلغ باريس خبر التعبئة العامة اجتمع مجلس وزراء فرنسا في مساء ٣١ اغسطس اجتماعاً لخص نتيجته وزير حربية فرنسا لملحق الروسيا العسكرى حوالى منتصف الليل بقوله له ان حكومة فرنسا قد صممت على الحرب. ولما كانت المانيا قد اعلنت عصر ذلك اليوم « حالة الاحكام العرفية » فقد بات متوقعاً ألا تترك النمسا والمجر وحدها تحارب الروسيا.

وقد كانت أصعب مهمة هي العمل على كسب جانب انجلترا بادخالها فى الحرب وقد لفت السفير الروسى فى لندن بنكندورف في خريف سنة ١٩١٢ نظر حكومته الى ان بريطانيا العظمى يمكن كسبها وحملها على الاشتراك فى الحرب إذا كانت هذه الحرب تصبح بعمل فعال من جانب فرنسا حربا عامة تقع المسئولية عن الاعتداء فيها على الخصم أو بعبارة أخرى على دول الوسط. وقد تحققت أولى هذه النقط حينما لم تترك الجمهورية الشك يساور أحد لحظة فى انها ستهب لمعونة صديقتها الشرقيـة ونشأت أهمية النقطة الثانيـة من المركز الداخلي الخاص الذى كانت فيه انجلترا. فان غراى لم يكن قد نسى ماخبره فى الاسابيع التى تلت الازمة المراكشية الثانية. ولما كان يحتمل وقوع مشاكل أوروبية كان غراى يشير بعبارة جلية الى أن كل شيء يتوقف على الكيفية التى تنشأ بها هذه المشاكل إذ كانت امته لا ترى الحرب ضرورة لازمة إلا اذا وقع الاعتداء من جانب دول الوسط. وقد كان موقفه فى خلال الايام العصيبة التى تلت ٢٣ يولية سنة ١٩١٤ موقف تحيز لحلفاء انجلترا السياسيين لانه كان على رغم رجاء المانيا المتكرر حتى اللحظة الاخيرة قد تحاشى أن ينصح لبطرسبرج بالاعتدال. ولو انه نبه باديء الرأى بكلمة واحدة الى انه يري النزاع الصربى النمسوى مسألة لا يصح للروسيا ان تتدخل فيها لكان الروسيون خليقين بالتأكيد ان ينعموا النظر ولما كانوا قد ساروا هذه السيرة العنيفة. ومن جهة أخرى لم يكن يسع غراى أن يعطي تأكيداً

جلياً معيناً بان الجزر البريطانية ستقاتل مع فرنسا والروسيا جنباً الى جنب لانه لم يكن يملأ يده من الرأي العام في بلاده . ولذا فعلت باريس كل شيء من شأنه أن يسهل عليه الامر ويزيل تردده فقد نصح للروسيا بأن تجعل اجراءاتها الحربية في طي الكتمان ما أمكن . ولما اتخذت فرنسا اجراءاتها لحماية الحدود صدر الامر بان يبتعد الجنود عشرة كيلو مترات عن الحدود الالمانية « لاسباب ديبلوماسية » ولكي يقع في النفس ان فرنسا ميالة الى السلام . وقداشار بوانكاريه فيما بعد الى ذلك الاجراء بصفة خاصة كدليل على ان فرنسا ليست المعتدية وذلك في كتاب بعث به الى ملك الانجليز يرجوه فيه مساعدة بريطانيا العظمى . وهذه كلها مناورات عمل حسابها ودبرت بفطنة .

في تلك الاثناء كان تطور الامور في برلين مما يساعد على المساعي التي أسلفنا ذكرها . فان هيئة أركان الحرب الالمانية رأت نفسها بتلك الاخبار التي كانت ترد تباعا عن اجراءات فرنسا والروسيا على الحدود الشرقية والغربية حيال احتمال وقوع الحرب في ميدانين ، وهو احتمال كان يلقى على عاتق تلك الهيئة مهمة شاقة جداً وضعتها نصب عينيها منذ عشرات السنين . لذلك خفت من جانبها الى اتخاذ اجراءات منعية لمناهضة تلك الحركات الآنفة الذكر . ولم يكن يمكن مواجهة الاخطار الهائلة الناجمة عن هذا التطويق إلا اذا سبقت المانيا اعداءها بقدر المستطاع . وهذا الزحف الذي كان يحتمل من جانب الروسيا من ساعة لاخرى كان يستلزم وثبة الى الامام . وقد زاد في هموم قيادة الجيش الالماني ماظهر من أن النمسا لم تكن تستطيع أن تتخذ الاجراءات العسكرية اللازمة ضد الروسيا في حين انها تسرعت في مسلكها نحو صربيا . وقد ردت فينا على التعبئة الروسية الجزئية ضد مملكة الطونة بالتعبئة العامة التي لم يصدر الامر بها إلا في ٣١ يولية . أما القيادة الالمانية العليا فقد طلبت في ٢٩ يولية إعلان حالة الاحكام العرفية فرفض الزعماء السياسيون

طلبها وظلوا يرفضون الى يوم ٣١ يولية حيث أجابوا الرجاء لما أن زال كل شك في التعبئة الروسية العامة . ولقد أخفقت كل تحذيرات الامبراطور والمستشار الامبراطورى لبطرسبورج كما ضاعت سدى كل مساعي لندن . وهكذا خفتت أصوات الساسة بين قعقعة الاسلحة التى كانت تتزايد شيئاً فشيئا .

وفى أول أغسطس أمرت فرنسا فى الساعة الرابعة بعد ظهر ذلك اليوم والمانيا بعدها بساعة بالتعبئة العامة . وفي مساء نفس اليوم أعلنت الحكومة الالمانية الحرب على الروسيا . وفي مساء ٣ أغسطس أعلنتها على فرنسا وقد كان لامناص من هذه الاجراءات للضرورات الحربية الآنفة الذكر . وبذلك أتيحت لباريس وبطرسبورغ الحجة المرومة للظهور بمظهر المعتدى عليهما وكانت الخطة الحربية الالمانية الموضوعة من عشرات السنين تقضي فى حالة ماإذا نشب القتال في ميدانين ، أن تخترق بلجيكا المحايدة لانه بهذه الطريقة وحدها يمكن صد الجيش الفرنسى على عجل وهذا ما كان يرتئيه الفنيون . ولم يكن الفريق الآخر يجهل هذا الامر بل كان يعلمه حق العلم ويتوقعه منذ سنة ١٩٠٦ . وفى سنة ١٩١١ كتب ايزفلسكى السفير الروسى من باريس يقول : « انهم هنا يعتقدون من زمن طويل ان المانيا لامحالة من أن تخرق حياد البلجيك إذا نشبت حرب جديدة بينها وبين فرنسا » . وإذن فقد كانت تسليحات الانجليز والفرنسيين المشتركة صادرة عن هذا الاعتبار . لكنه لما طلبت برلين من بروكسل موافقتها على اختراق بلجيكا أتيحت لغراي في لندن وسيلة لترغيب الشعب البريطانى في الاشتراك فى الحرب ضد دول الوسط فأكد «أن بريطانيا العظمى يجب أن تسد تلك الثلمة التى أحدثها الامبراطور غليوم بتلك الصورة المخجلة وأن تنتصر لحق الأمم الصغيرة ذلك الحق المقدس» . وهكذا أعلنت الجزر البريطانية الحرب على المانيا في ٤ أغسطس .

وخليق بمن يتأمل الحوادث التى أفضت الى نشوب الحرب العالمية ، أن

يصل الى أن تلك الحرب كانت نتيجة مشئومة محتومة للحوادث التي سبقتها. وقول القائل « ان الصدفة شيء غير موجود » تؤيده حياة الشعوب كما تؤيده حياة الأفراد . فكارثة ١٩١٤ لم تقع بغتة ولم تنشأ من العدم بل جاءت نتيجة محتومة لتطور جيل بأسره . وهي بعد كل شيء ليست عملا شريراً من أعمال فريق بمفرده من رجال الساسة والحرب أرادوا به الفتح أو اطفاء شهوة الانتقام بالغاً ما بلغ عمل هذا أو ذاك من الرجال المسئولين في التعجيل بالحرب القائمه عمدا أو غير عمد . فان هؤلاء الافراد ليسوا على كل حال الا أبناء القرن الذي ما كانوا ليحققوا شيئاً من رغباتهم لولا طبيعته وأسلوبه . وما كان ليسع أحدا اشعال النار في قارة باسرها لولم تكن الريح مؤاتية . وهذه الريح كانت روح ذلك العصر الذي ينعته المرء « بالاستعمار » ، كانت الرغبة في التوسع والنمو والسلطان ، تلك الرغبة التي كانت تختالج أنفس الدول الاوروبية من زمان طويل . فجهاد الكل ضد الكل — ذلك الجهاد الذي نشب في أوائل أغسطس سنة ١٩١٤ في صورة مخيفة — كان موجودا دائما ، وان كان بشكل أخف جدا ، يبسط ظلاله الكثيفة التي ازدادت ظلاما مع الايام على فريق من البشر لم يكن ينى عن التقدم والانبعاث . وقد بدأ هذا الجهاد بطبيعة الحال في الخارج بعيدا وفي قارات أجنبية كانت الامم الكبرى تسعى الى أن تجمع فيها ما يمكن جمعه . ثم دقت الساعة التي انتقل فيها هذا الجهاد الى أوروبا نفسها فانقسمت فريقين وأخذ الفريق الاقوى ينبعث ضد الفريق الضعيف . فغدا الفصل النهائي قريب الوقوع وحلت الضائقة لما ان حاول الفريق الاضعف في شخص النمسا والمجر أن يرفع الضغط المتزايد عن مركزه الذي كان قد ساء كثيرا لكن الفريق الآخر كان قد بات أقوى شكيمة وأكبر توفيقاً من أن يسمح بذلك .

وكان ما تشتهيه المانيا من التوسع يرمي فيما عدا شيء من المستعمرات قليل بالنسبة لما يمتلكه الغير — الى ادخال آسيا الصغرى في دائرة نفوذها

والتوسل الى ذلك بمشروع سكة حديد بغداد . لكنه لما كان هذا لا يتم لها الا بأن تكون البلاد الواقعة فى طريقها وهى النمسا والمجر وتركيا خليقة أولاهما بالحياة سليمة ثانيتهما من الامراض ، لم يكن بد من أن تعمل المانيا على المحافظة على الحالة الراهنة في أوروبا لا على تغييرها . وإذن فقد كانت سياستها غير قائمة على العمل على احداث الانقلابات كما كانت الحال مع طائفة مهمة من دول الخصوم . فقد أرادت الروسيا السيادة في الشرق الادنى سيادة لا سبيل الى تحقيقها الا بالسعى الحثيث وراء حل النمسا والمجر ونسف الباب العالى . وقد عنيت فرنسا باستغلال هذا السعي من جانب حليفتها الشرقية حتى اذا ماداقت الساعة أمكنها مناقشة المنتصر في حرب السبعين الحساب . أما انكلترا فقد أحست من نفسها ميلا متزايدا الى التخلص من منافستها المانيا التى أخذت تنمو وتعظم كدولة بحرية وذلك عند ما تضايقها جاراتها في البر . وهكذا كانت نزعة دول الوفاق الاستعماري تتجه شيئاً فشيئاً الى الاعتداء . ولقد كانت الاغراض التى رمت اليها دول الوفاق من الحرب والتى ظهرت جلية بالنسبة للروسيا وفرنسا بسرعة على أثر ابتداء الصراع المخيف نقول — كانت هذه الاغراض هي القضاء على المانيا وتحطيم النمسا والمجر بفتح الروسيا للاستانة ، وغزو فرنسا للالزاس واللورين

وقد خرج المتفوقون في العدة من الحرب العالمية منتصرين فكان القول الفصل في ذلك العراك الهائل للارقام والقوة المادية . وهذا هو الظفر الذي أصابه عصر الاستعمار .